

صورة الجزائر عند الرسام والكاتب الفرنسي أوجين فرومنتان* في كتابه "سنة في السهل"

أ. علي بريغيث

لا يخفى على دارس آداب الشعوب أن الصورة كانت موجودة من ذي قبل في الانطباعات والإشارات التي ميزت سلوك الإنسان في مختلف الحضارات والأقطار، ومن بين الفنون الأدبية فقد قدر للرحلة أن أحدثت كشوفاً لم يكن متوقفاً منها تغيير نظرة الإنسان لذاته ولغيره، من خلال رصد الكثير من الصور لمظاهر متعددة للحياة اليومية عند بعض الشعوب، خاصة ما يتصل بالبيئة وصفات ساكنيها من ملابس وطبائع وفي الأسواق والأماكن العامة وعادات الأفراح والتقاليد المصاحبة لها، قصد اكتساب معرفة الواحد بالآخر في ثنائية من شأنها أن تنهض على افتراض الغيرية التي يتألف منها الوجود الإنساني سعياً إلى إثبات الأنا.

لذا يعد علم الصورة من أحدث المجالات في الأدب المقارن وأهمها على الإطلاق، الذي أثبت وجوده في أواخر القرن العشرين ليرى الشعب أي كان صورة نفسه وما بها من محاسن يثمنها ويعيوب فيفوقها.

وبالرغم مما تسعى إليه الصورة من أمانة ودقة وصفاء إلا أن تمثيلها للواقع ومطابقتها له مطابقة كلية أمر لا يمكن حدوثه، ذلك " أن الصورة غير ثابتة فالشخص يتغير دائماً، يتغير في شكله كما يتغير في باطنه، يتغير في شكله لأنه يتطور مع نمط الحياة، فهو يغير ملابسه وطريقته في الحياة اليومية، ويتغير كذلك في باطنه، فيتخلّى عن بعض الأفكار، ويؤمن بأفكار أخرى جديدة أو قديمة لم يكن يؤمن بها، إذ يعيش وينمو ويتطور، فالإنسان غير جامد، وعدم الجمود يعني الحركة والتطور أي التغيير، وقد يكون التغيير سريعاً وقد يكون بطيئاً " 61

وليس خافياً أن بواخر الاستشراق قد ظهرت على يد علماء الدين المسيحيين في أوروبا لمعرفة تفاصيل أرض وموطن السيد المسيح عليه السلام، فقد شغف الكثير منهم بقصص الشرق وأساطيره؛ وعلى مرّ الأيام تحوّل الاستشراق إلى هدف استعماري، فنتج عن ذلك ظهور دراسات علمية حديثة وأبحاث وأقوال مختلفة جعلت من الشرق وبيئته صورة لإنسان بدائي على خلاف ما وصل إليه الغربي إلى حدّ القرن التاسع عشر من حضارة مزدهرة، معترفاً بثقافته وتاريخه ودينه وذاتيته الرافضة لكل نقيض لرغبته المفعمة بالمدّ الاستعماري والساعية إلى التوسع والاستيلاء إلى ما وراء حدود أوروبا خاصة العالم الإسلامي في مشرقه ومغرب العربيين، والذي خضع لمطامع فرنسا وبريطانيا بالرغم من تصادم مصالحهما، ومع ذلك ترجم الفرنسيون جلّ ما دوّنته دول أوروبا وأمريكا عن الجزائر.

وقد اتّسم الاستشراق الفرنسي باحتلال الجزائر على حدّ رأي الدكتور أبي القاسم سعد الله بمرحلتين (1830 - 1880) و (1880 - 1930)، قرن كامل كان فيه الاهتمام بالجزائر قلباً وقالبا " فمن البديهي أن يهتم المستشرقون الفرنسيون بالشعب المستعمر دينا ولغة وعادات وآثاراً وتاريخاً، كما أنّه من البديهي أن يتطور هذا الاهتمام حسب حاجة الإدارة الاستعمارية وحاجة الدولة الفرنسية نفسها في العالم " 62 لتصل إليها التقارير الاستكشافية " في أعمال (الجواسيس والتجار والمبشرين والفنانين والمؤرخين والبحارة والأثرياء والمعمرين والمغامرين والرّحالة والدبلوماسيين والبعثات العلمية وغيرهم ممن رافق الجيش الفرنسي)، الذين حلّوا بالجزائر بصفة فردية أو على نفقة الحكومة الفرنسية " 63 فكانت الصورة تلتقط عن حياة الجزائر الشرقية مهما كانت قيمتها فيما يخص الإنسان ماضياً وحاضراً وبيئته الفطرية الخالصة .

ومن أولئك الذين تأثروا بحياة الجزائر مع بداية الاحتلال، الفنان الرومانسي أوجين دو لاكروا الذي مكث بين ثلاثه إلى عشرة أيام بالجزائر " وادّعى أنه رأى حريماً أو داراً من الداخل المحرم على أمثاله " 64 فاشتهر برسم مشهد فتى خالد عنوانه « نساء الجزائر »، وعدّها الفن الفرنسي رائعة وثيقة مطابقة لواقع الطبيعة والحياة من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي .

" ولكن المرأة الجزائرية الحقيقية كانت كالمرجانة الصافية " 65 معززة مكرمة في بيتها، وما التقاط الصورة لها إلا حالة استثنائية من قبيل الصدفة التاريخية؛ " هذا رائع إنهن كما في عصر هوميروس، إنني أفضل صورة المرأة هذه على كل ما عداها " 66 حيث أرضى بها الفنان فضوله وإصراره في البحث وأدخلته خلسة إلى هذا الحصن المكين بحسب زعمه مظهرها أسرارها ومحاسنها وطبيعته وخطوره، مفسحاً المجال أمام من هم في فلك تخصصه إلى الاستفادة من تجربته الفريدة .

ومن الفنانين الذين زاروا الجزائر وتتلّمذوا على يد دو لاكروا وتأثروا بأعماله في كتاباتهم أوجين فرومنتان " سأذهب لرؤية ما إذا كانت شقة «حوى» تشبه الصورة الرائعة لـ : دو لاكروا (نساء الجزائر) " 67، ثم يضيف " وصولاً أمام غرفة سيديتها أدارت الخادمة السوداء رأسها إلى النصف من جانبي وعملت بالضبط الإشارة التي كانت بإمكانك رؤيتها في صورة دو لاكروا من أجل إزاحة الستار المتورد " 68 . فهنا يلاحظ أن فرومنتان منبهر بهذا المشهد الفطري الشبيه بلوحة « نساء الجزائر » كما كان مهووساً إلى درجة الإفراط في ذكر طبيعة الجزائر وامتزاجه معها، تكريساً لثنائية الأنا والطبيعة خدمة للفن الذي ينشده ورغبة منه إلى ترشيد مجتمعه إلى القيم الجمالية الموجودة هنا والتي تفتقر إليها بلاده، إلا أنّه لم ينصف الإنسان فعّد ممن هم في وضع الرّهاب، ذلك أنه أقصى الآخر وبحث عن موته الرمزي، فلا وجود إلا لإفريقيا فرنسية " 69

* أوجين فرومنتان (1820-1876) " Eugène Fromentin "، زار الجزائر في ثلاث رحلات (1846، 1847، 1852) وقد خصها بكتابين تحت عنوان : " Une année dans le Sahel " . " Un été dans le Sahara " .

61 . عبد المجيد حنون . صورة الفرنسي في الرواية المغربية . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر ؛ 1986 . ص 82 .

62 . د. أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي . ج 8 . ص 41 .

63 . المرجع نفسه . ص 50 .

64 . المرجع السابق . ص 378 .

65 . المرجع نفسه . ج 6 . ص 356 .

66 . Delacroix E. Voyage au Maroc 1832 . Paris 1930 . p 24 .

67 . Eugène Fromentin . Une année dans le Sahel . Michel Lévy Frères, Libraires - Editeurs . Paris 1859 . P 175 .

68 . Ibid : P 177 .

فالجائر كانت عنده مجرد موضوع جميل، ريفها وصحراؤها وسمائها ولذلك فهي موضوع للامتلاك والاستقلال وإذن فهي عنده فريسة يجب قنصها، وقطعة من الشرق يجب فرنستها . " 69

لقد وقعت الجزائر في دائرة اهتمام الرسام والكاتب فرومنتان منبهرا بسحر جمالها معبرا عنه بحد الريشة والقلم موطّدا علاقته بإخلاص مع جمهوره الفرنسي الذي عدّه باعث الإبداع والحداثة*، ولتقل هذه المسؤولية كتب إلى أحد أصدقائه معلقا على رحلات سابقه، يقول : " إنني أشعر بما ينقص فدائي بلدنا الرحالة، وأعني الصبر والإخلاص للطبيعة " 70، فهو يحس بفقدانه موهبة الخيال الإبداعي وعدم القدرة على الابتكار والتناقض في شخصيته المتولد من شكل الواقع الذي يريد تجسيده، فكتب إلى أهله معترفا بثغرات شخصيته الفنية " إنني أفترق إلى موهبة التجريد، وذلك لأنني لا أتقن النظر الثاقب . ولهذا تشخص أُمّمي مهمة إضفاء أقصى حدّ من الفنية على تصوير الطبيعة " 71 . واعترافا منه على أن الطبيعة الجزائرية أيقظت فيه روح الإبداع بقوله : " إنني أعيش خارج الزمان والمكان منذ أكثر من شهر ؛ حيث أهذي في اليقظة وأخشى أن أستيقظ " 72 . لقد أمّلت عليه الرغبة التوجه إلى الصحراء لاختبارها، راصدا طبيعة الإنسان فيها وتعامله مع مناخها حيث درجة الحرارة المرتفعة والزوايا الرملية الهوجاء وكثبان الرمل والحيوان والزواحف والحشرات والنبات وواحات النخيل والسواقي ... إنها صورة الحياة والبيئة على أصالتها، مما جعلها عناصر قوية سخرها لإثراء فنه كمصور وكاتب، ولن تكون في نظره سخية كفاية ما لم تسمح به الفرصة التوغل في نسيج الشعب الجزائري، مبلغ هدفه في تسجيل تغيرات الطبيعة وطباع الناس بعمق، وفي تحقيق التميز المعقول الذي لم يظفر به أحد من قبله من الرحالة الفرنسيين مما استقاه من معارف أدبية وتاريخية وتصويرية عن مناطق الساحل والسهل والصحراء الجزائرية .

لقد سعى فرومنتان إلى البحث عن الصورة الفطرية الموحية المبتدعة، وقد وجدها في مشاهد الصيد والرعي والحيوان والآثار والغاية والمناخ والبحر والصحراء والتل وفي الجبل والسهل والوادي وإنسان الحاضرة والبادية ... وكانت نفسه تتوق دوما إلى التجوال في الريف والبراري وتلك عادة الرومانسيين، سعيا منه إلى توفير أسباب الراحة واقتناص الجديد والتفاعل مع متطلبات الحياة المعاصرة في تباين الألوان، وفيما يعبر حقا عن مشهد خصب مثال عن الجمال والفن الخالص.

ومن جملة ما أنجزه فرومنتان كرسام مبدع على خلاف معاصره من وحي الصحراء والتل، ألواحه : صيد الغزلان - واحة النخيل - مخيم من جبال الأطلس 73 - هبوب الريح في الصحراء 74 - لصوص الليل 75 - بلاد العطش 76 - وغيرها من العناوين المرتبطة بهذه البيئة الفطرية الموحية .

وحول موضوع الجزائر ألف فرومنتان كتابين، الأول بعنوان " صيف في الصحراء " (1857) متحدثا فيه عن مدينة الأغواط بنظرة رسام لا كاتب على حدّ قوله : " أنا أشعر بكل نقص فيما ألّفت ولكنني لا أستطيع فعل شيء الآن ... تبدو كتاباتي مفصولة بعضها عن بعض، كأنها لوحات تحتاج إلى أن أربط بينها، لم أشأ أن أخدع نفسي، أجدني أتصرف كرسام على الرغم مني، بيد أنني لا أشك في وجود جو عامر يلهم شعثها ولاسيما جوّ من الحرارة والقوة " 77 . وهذا ما انعكس حقيقة في الموضوعات التي عالجها الكاتب في كتابه الثاني « سنة في السهل » (1858) الذي وصفه على أنه " تقرير Bulletin لهذا السفر القصير " 78 وتارة صحيفة Journal عند قوله " ربما نسويه فيما بعد (صحيفة سفر) . لكن اليوم متواضعين، ونسميه بكل بساطة (صحيفة غائب) " 79 ؛ وفي موضع آخر من كتابه يقول : " رتبت وثائق صحيفتي ورسوماتي من الطريق، قليلا بحزن، لأنه مقارنة بما رأيته هنالك بدائي تافها كل هذا الذي لم يكن جميلا ... " 80

وعلى مرّ الأيام تمكن فرومنتان من أداة الكتابة والإفصاح عما في نفسه من أفكار ومشاعر بطريقة لغوية راقية، كشفت عن مواهبه وميوله و" كان ناضجا في ملاحظاته ويتتبع كل التفاصيل " 81 وكانت له القدرة على إجراء الحوار واستحضار الشخص وابداء الانفعال لما هو جميل أو قبيح، مما يؤكد توازنه الكامل أمام "العالم الشرقي" وهو يعبر عنه، وهنا يقول : " بدائي وأنا أنجز الكتابين، أن أقارن بين طريقتين للتعبير بدتا متشابهتين قليلا على عكس ما يفترضه البعض، كان علي أن أعرف إذا كانت البيئتهما هي نفسها أو تختلف من واحدة إلى أخرى، وأن أعرف مصير أفكاري وأن أنقلها من عالم الأشكال والألوان إلى عالم الكلمات، هذه الفرصة لا تسنح إلا نادرا " 82 .

والواضح أنه في القرن التاسع عشر الميلادي، زادت الحاجة إلى قراءة الكتب في ظل عنفوان الحركة الرومانتيكية في فرنسا وأوروبا عامة هروبا من الواقع الذي اكتسخته الصناعة والمال ؛ ونظرا لرواج النظريات الاجتماعية والأنثروبولوجية والأثنولوجية* والدينية، سعى الكتاب والفنانون والمؤرخون منذ احتلال الجزائر في البحث عن الصورة المثيرة مما فسح

69 . د. أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي . ج 8 . ص 381 .

* ... إنها برنامج تحريري للثقافة والفن، أو إن شئت فقل إنها التصور الجديد للحياة ذاتها ... في ظل إيقاعات الزمن المتلاحقة، والتطور المذهل في النمو المعرفي، والمتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، والاستجابة الإيجابية لمظاهر التغيير عند مختلف الشرائح الاجتماعية ... فتجلت في أعمال الكتاب والفنانين من خلال تلك الحركات الفنية المعروفة - آنذاك - . (مجلة عالم الفكر . الكويت؛ 1988 . ص 07 . 08)

70 . Eugène Fromentin . Les Lettre de jeunesse . Paris . 1909 . P : 240 .

71 . Ibid . P : 182 .

72 . Ibid . P : 182 .

73 . فرومنتان . لوحة : " مخيم من جبال الأطلس " زيت، 1860 صالة الفن في بالتييمور .

74 . فرومنتان . لوحة : " هبوب الريح في الصحراء " . 1864 مجموعة خاصة هيوستن .

75 . فرومنتان . لوحة : " لصوص الليل " اسكينر . 1865 مجموعة كريستي لندن .

76 . فرومنتان . لوحة : " بلاد العطش " . 1869 متحف أورسي، باريس .

77 . Un été dans le Sahara . P 33

78 . Une année dans le Sahel . P 03 .

79 . Ibid : P 133 .

80 . Ibid : P 242 .

81 . د. أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي . ج 8 . ص 381 .

82 . Un été dans le Sahara . P 59 .

* فالرحالة الغربيون في دراستهم للشرق كانوا أنثروبولوجيين وإثنولوجيين ؛ بمعنى أنهم يعنون بالدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات والقيم، والأدوات والفنون والمآثورات الشعبية لدى المجتمع الشرقي خلال فترة زمنية محددة،

المجال إلى ظهور كتب الانطباعات التي " تتناول السكان وأنماط حياتهم وملابسهم وعاداتهم وأخلاقهم، والأحياء السكنية، وتناقضات الطبيعة في نظر الكتاب، وفتنة السماء والبحر واختلاف المناظر «الإفريقية» عن المناظر الأوروبية " 83

ويبدو جليا أيضا باعتراف الكثير من الدارسين الفرنسيين أن فضل فرومونتان فيما استوحاه من موضوع الجزائر قد وردت آثاره في العديد من إبداعات بعض معاصريه ومن تليه من بعده مثل أندري جيد وإيميل ماسكري وإتيان ديني وغيرهم*

ومن المواقع التي خصها الكاتب بحديثه منطقة « السهل » وما ضمت من مناطق ريفية وأودية معروفة، " أنظر السهل ! الأفق رائع الامتداد، من العظمة ومن الاتزان، المسافر يبقى متعلقا به، حتى بعد مشاهدة أكثر من صورة نادرة . " 84

والظاهر " أن أول ما واجه التوسع الاستعماري في الجزائر بعد احتلال مدينة الجزائر مباشرة هو سهل « متيجة » والذي عرف أيضا بفحص الجزائر " 85، سعيا منه إلى السيطرة عليه بإحراز التقدم في استغلال الأرض خارج مدينة الجزائر قصد التصدي لحركات المقاومة وتضييق الخناق عليها بقطع الإمدادات عنها لإخماد نيرانها من جهة، وبلوغ المناطق الداخلية تدريجيا من جهة أخرى .

كما أن فرومونتان تحدث عن مدينة « قصر البخاري » في إيجاز، والتي عدّها مركز عبور وإقامة للأشخاص والقوافل، حيث أنها تضم فندقا ومقهى ومرافق أحر لاستراحة الوافدين إليها من كل اتجاه؛ والتي على قرب منها تظهر قلعة « بوغار » العسكرية الحصينة والمعدة أساسا لغزو الصحراء .

وعلى خط سير الكاتب يلاحظ أنه مر بـ « الجلفة » موطن « أولاد نائل » وقضى بها عدة أيام متمتعا بجمال مناظرها؛ مرتبطا بكل المناطق التي زارها عاطفيا، مدافعا عنها في كتاباته كارض يراها ملكا له، مخلصا في ذكر التفاصيل عنها بكل دقة " إن كل أماكن لحظات عزلتنا الماضية، والأماكن التي عانينا فيها من الوحدة والتي استمتعنا بها ورغبنا فيها وتألّفنا مع الوحدة فيها تظل راسخة في داخلنا، لأننا نرغب في أن تبقى كذلك؛ الإنسان يعلم غريزيا أن المكان المرتبط بوحدته مكان خلاق؛ يحدث هذا حتى حين تختفي هذه الأماكن من الحاضر .. " 86

وعن مدينة « الأغواط » فهي تقع في الجنوب من مدينة الجزائر، وتعتبر همزة وصل بين الشمال والصحراء " وقد كانت ملقبة العلماء ورجال الدين ومقصد التجار مما جعل الميزيين واليهود يحطون بها الرّحال منذ القديم ليحتفروا بها التجارة ويشتغلوا في الصناعات المختلفة . وقد كانوا يعيشون جنبا إلى جنب مع الأغواطيين تجمعهم مدينة واحدة وعلاقات مشتركة مبنية على حسن الجوار وتبادل المصالح والمنافع . " 87 وكان من بين الأهداف العسكرية من احتلال الأغواط، هو التوغل في الصحراء وإخضاع مدنها إتباعا إلى نهاية القرن التاسع عشر . في حين أن زيارة الكاتب لهذه المدينة الإستراتيجية هو اكتشاف الصحراء بعد تيقنه أن الأغواط أصبحت تحت سيطرة الاحتلال الفرنسي نهائيا سنة 1853 .

والمطلع على رحلة فرومونتان يجده قد تكلم عن كل هذا تارة بصفة إجمالية مختصرة وتارة مفصلة حسب أهمية المنطقة وحجم المدينة وأهميتها التاريخية، وعلى العموم فإن " مدن شمال إفريقيا تأسست حول نواة مركزية يمكن تشبيهها بالخلية الأم التي تتكون غالبا من المسجد والمقبرة والسوق يحصنها سور به أبواب يرسم حدود المدينة بكيفية دقيقة ... وبدخلها يظهر الحماة* ببنائه المتميز وترتفع قصور جميلة يسكنها الأشراف والسادة " 88 .

لقد أثرت الجزائر كثيرا في فرومونتان حتى أنه بعد أن رجع إلى الجزائر (العاصمة) وسكن قسرا بناحية مصطفي باشا، بدأ بالتعريف بالبيت والمحيط الذي يسكنه " المنزل الذي أسكنه رأنع لقد وضع كمرصد بين التلال والشاطئ ويشرف على أفق مدهل : على اليسار الجزائر وعلى اليمين حوض الخليج بأكمله إلى حدّ راس « ما تيفو » الذي يظهر عبر نقطة ضاربة إلى اللون الرمادي بين السماء والماء، وأمامي البحر . " 89 وبالمنزل إسطنبول به خيول وحمام وكلب حراسة، وتحيط به حديقتان، إحداهما صغيرة مشجرة والثانية روضة مروج للرّعي فسيحة ملك للكاتب وخدام عربي وجار بولوني .

ولعل فرومونتان حينما تحدث عن خاصته البيت الذي يقطنه إنما يلوّح من بعيد عن الكنز الذي عثر عليه هنا سعيا منه إلى دعوة غيره في الهجرة إلى الجزائر وأن يحذوا حذوه في أملاك البيوت والضياع وسط هذا الأفق المفتوح والطبيعة الساحرة .

لقد استوقفت فرومونتان منازل الجزائر (العاصمة) المنغلقة والمحترسة من الدخلاء ليعبر عن ذلك بقوله : " مدنهم ضمن البناء بالذات الأكثر رمزية وذات معنى، « مدنهم البيضاء » يلجأونها، تقريبا تشبه البرنوس القومي الذي يكسيهم، على شكل غطاء ضمن نمط واحد وخشن؛ شوارع على شكل شعب مظلمة غالبا مقوسة، منازل دون نوافذ، أبواب منخفضة، دكاكين في مظهرها الأكثر فقرا، حيث السلع مكدسة ومبعثرة فوق بعضها البعض كما لو أن البائع يخشى عليها من الظهور، صناعات تقريبا بلا أدوات؛ أكيد التجارة الصغيرة مضحكة، أحيانا بعض الثراء في عمق خفي، لا حدائق لا أخضرار مجرد قدم ممتدة لشجرة عنب أو تين غارقة في الردم، ملتقيات للطرق، جوامع لا يمكننا رؤيتها، حمامات أين يترددون عليها باستمرار غريب، كتلة واحدة متماسكة في غموض من العمارة مشيدة كالضريح أين الحياة تتكتم، أين المرح يخشى أن يسمع ... " 90

ثم يقومون بدراسة تحليلية والمقارنة للمادة الأنتروبولوجية بهدف الوصول إلى تصورات نظرية، أو تعميمات بصدد مختلف النظم الاجتماعية الإنسانية من حيث أصولها وتنوعها ... (جمال أمباركي . الغرب في الرواية العربية الحديثة بحث لنيل درجة دكتوراه العلوم في الأدب العربي الحديث . جامعة باتنة 2008 - 2009 . ص 48)

83 . د. أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي . ج 6 . ص 381 .
* وذلك بحسب رأي أبي القاسم سعد الله في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي . ج 6 و ج 8 . ص 382 و 415 على الترتيب

84 . Une année dans le Sahel : P 154 .

85 . إبراهيم مياسي . مقاربات في تاريخ الجزائر . ص 71 .
86 . غاستون باشلار . جماليات المكان؛ ترجمة : غالب هلسا . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 2 . 1984 .

ص 40 .
87 . عيسى عطاشي صورة الجزائر في أدب الرحلات الفرنسي "صيف في الصحراء" لفرومونتان نموذجا . 2005 . ص 66

* مرفق ضروري عند المسلمين للاغتسال والوضوء من أجل تأدية الفرائض الدينية .

88 . Roger Le Tournau " Les villes Musulmanes de L'Afrique du nord " Ma Maison des livres .

Alger 1957 . P 11 .

89 . Une année dans le Sahel : P 10 .

90 . Ibid : P 31 . 32 .

ففي الظاهر أن فرومندان أبدى إعجابهم بعمارة مدينة الجزائر وطبيعتها الساحرة والتي بدأت هذه الأخيرة تخضع لعملية تجميل على طراز الهندسة المعمارية التي تشهدها كبرى مدن فرنسا وأوروبا عامة مع المحافظة على بعض المعالم التراثية العربية العريقة من قبيل الذكرى التاريخية لهذه المدينة المشرفة على زوال أهلها، أولئك الذين نظر إليهم فرومندان على وجه العموم نظرة كراهية واستصغار شأنهم حين رآهم ملتفين حول أنفسهم خشية الذوبان والاندماج مع غيرهم والصمت يطوق بيوتهم ؛ غير أنه وجد فضاءات أحر أكثر انفتاحاً بإمكانها البوح بأسرارها والتزود من أخبارها بما لم يألّفه من ذي قبل .

وفي قوله : " الأجنبي يسميك المدينة الصغيرة، وأنا البلدي لسميك الورد الصغيرة » وريدة « 91 كلمة أطلقها الكاتب على مدينة البلدة ؛ والتي قدم إليها من الجزائر على متن عربة تجرها الخيول، ليستغرق مدة خمس ساعات من السفر الشاق عبر طريق ترابية ملتوية، استجابة لدعوة صديقه لويس فوندال* « بوجعية » للإقامة معه في هذه المدينة المفتوحة على سهل « متيجة » والتي بدأت تهينتها على الطراز المعماري الأوروبي بإقامة الثكنات والعمارات والفنادق والمطاحن والمصانع ومشاريع شق الطرق، ... يأتونها رجال الحرب الفرنسيين للاسترخاء بها، كما أصبحت قبلة للمستوطنين والوافدين إليها من كل حذب وصبوب، مما كلف الكثير من أهلها الأصليين بالنزوح عنها إلى المناطق المحاذية لها والاستقرار في المناطق الجبلية، حين تغيرت ملامحها العربية بلامح غريبة " المرابطون ضمن هذا ليس لهم مكان . يسكنون في عزلة في الجبل، المساجد لا تنقش إلا لأجل الذاكرة ومثل سبحة في يد فاسق، البلدة تشبه اليوم، سمة يسمه إلى الموريسكية التي رأيتها تتجول في المدينة، التي كانت جميلة، والتي ما أصبحت كذلك، مرتدية كالفرنسية قبعة سيئة الذوق وفساتنا قبيح الهيئة وقفازات قديمة، ليس لها ظل في الطرقات، لا وجود للمقاهي ثلاثة أرباع المنازل محطمة وأستبدلت من خلال عمارات أوروبية، ثكنات ضخمة، طرق للمعمرين، في مكان من الحياة العربية، هذا الذي الحرب قد بدأت، السلم قضى عليه . اليوم أين البلدة لا يكون لها شيء عربي، تغدو مدينة جميلة للغاية، البلدة الحديثة ربما تنسى القديمة اليوم أين هؤلاء يتأسفون عنها هم أنفسهم يختفون " 92 .

لقد حرص الكاتب في كتابه على إعطاء صورة عن المجتمع الجزائري للقارئ الأوروبي، بيّن في بعض منها سعي فئة من الشعب الجزائري إلى طلب الاندماج في فرنسا، مؤكداً هذا التوجّه عبر من ادعى أنهم اصداقوه من العرب في الجزائر ؛ والحقيقة أن الشعب الجزائري على طبيعته لم يقبل يوماً بوجودها على أرضه، ولم يغفل عن نواياها الخبيثة، متخذاً ضدها كل وسائل الرفض من مقاومة والتزام بالدين واللغة والعادات وبقاء على عهد الأجداد وتحذير الأجيال وتعبئة نفوسهم وإحياء ضمائرهم بالوعي والروح الوطنية .

ولا شك أن من بين أهداف الاستعمار المعلنة، هو إلحاق أرض الجزائر بفرنسا، وترسيخ هذه الفكرة لدى الرأي العام العالمي والأجيال الجزائرية الصاعدة عن طريق توثيق المعلومات وجرد الأشياء وإحصاء السكان بمنحهم الامتيازات التي تجعل منهم مواطنين مخلصين للدولة الفرنسية، وهذا لا يمنع طبعها بالمقابل من إثارة الفتن وانتهاج سياسة المغالطة في محاولة لتغطية جرائمها الفظيعة وتمزيق وحدة الجزائريين وصفهم وبث الشقاق بين السكان بتقسيمهم إلى بربر وعرب وأفارقة وأصليين ودخلاء، ليخلو الجو في تحقيق مآربها من تزييف الحقائق والتاريخ لتبرير وجودها في الجزائر على أنها سليلات الإمبراطورية الرومانية وأن لها الحق في بسط سيطرتها على الشمال الإفريقي، لكن ذلك كله لم يدفع الجزائريين إلى المساومة في حقوقهم، ولم يمنعه من الاستمرار في المقاومة لإثبات هويتهم كشعب متكامل ناضج التكوين، وأن لحمته الاجتماعية موحدة بفضل الدين الإسلامي واللغة العربية ؛ " وذهب بعض المستعمرين يبحث للقبائل عن أصل أري، وقالوا إنهم من أصل جرمانى، وإنهم عرفوا المسيحية قديماً . " 93

والصورة التي يقدمها الكاتب للمجتمع الجزائري موقوفة على أعراق ثلاثة، وهي : الأمازيغي والعربي والإفريقي ؛ مبيّنا تمايزها، وما تضمه كل طائفة للأخرى من كراهية ونفور، ليعد تفرقها مكسبا في فئاتها، كحدود فاصلة بينها تخدم مصالح إدارة الاحتلال الفرنسي .

غير أن الحقيقة عكس ذلك، فقد كانت الأمة الجزائرية موحدة بفضل تعاليم دينها الإسلامي الحنيف، إلى جانب تاريخها المشترك بين جميع الجزائريين والذي " تكون عبر العصور المختلفة، وتقاطع في كثير من فترات مع تاريخ جيرانهم وإخوانهم في بلاد المغرب والمشرق ... وبكفاحهم الطويل ضد كل الغزاة والمحتلين الذين نزلوا بأرضهم، ولأجل ذلك أطلقوا على أنفسهم اسم الأمازيغ، أي الأحرار " 94 .

ومن الصور التي قدمها فرومندان عن المجتمع الجزائري، تمسكه الشديد بالدين الإسلامي وشعوره بوجود الله، وقد تمثل عنده ذلك، في تواجد توافير الماء للضوء، وإقبال الناس على المساجد، وإقامة فريضة الصلاة، والتسبيح بواسطة السبحة، ومجاهدة النفس عن اقتراح الذنوب، كاجتناب التدخين مثلا ؛ "ومن ثم كان الطابع الذي يميز ثقافة الشرق إنما يتمثل في الدين، فمنه انبثقت نظرة الشرقي إلى الحياة، ولعلي لا أخطئ إذا قلت - بعد ذلك - إن جوهر الشرقي هو أن يحيى حياته الدنيا بكل أفرحها، وهو ينظر إليها من منظور ديني " 95 .

وفي نفس الوقت أشار إلى وجود الكثير من الطقوس التعبدية البالية المرتبطة بانتشار القباب والتوسل بالموتى والمرابطين والدرائش ؛ " ذلك أنه في الوقت الذي كان فيه علماء أوروبا ينادون بالحرية العقلية لتحرير العامة من ربقة

* Ibid : P 150 . 91 .

لويس فوندال : رحالة فرنسي ، يسميه عرب البادية والحاضر في شمال الجزائر بـ "بوجعية" إذ أنه يحمل أسطوانة بقيس بها الأبعاد ويملك فرسا مسرجة طمعا عربيا وهو صديق حميم لفرومندان ، تقاسم معه أوقاتا ممتعة جمعتهما في مدينة البلدة خاصة في فندق « بو ضياف » وسوق « باب السبت » وعند الحلاق « حسان » وفي بيت « حوة » والخروج في رحلة صيد إلى منطقة السهل وحضور حفل فروسية موعود للحجوبيين لينسدل ستار التوادع بينهما في آخر الكتاب بين مقيم وراحل على أمل اللقاء هنا " ومدّ زراعيه عبر إشارة كبيرة التي تشبه المحيط لحظة المرئي من هذه « الأرض الإفريقية » ضمن ممتلكاته العقلية . « سنة في السهل » ص 346]

Ibid : P 151 . 92 .

93 . أحمد منور . الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياها . ص 79 .

94 . المرجع السابق . ص 24 .

95 . منى أحمد أبو زيد، الفكر الديني عند زكي نجيب محمود . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع . بيروت، لبنان؛ ص 73

الخرافات ويبدعون علوما وفنونا للنهوض بالإنسان، كان مرابطو الجزائر يلبسون على العامة ويستغلونهم أشنع استغلال ويعرقون العقول في ظلام داس . " 96

وهذا ما جعل فرومندان يحكم على العربي بأنه يعيش ماضيه الحزين والمشرق في حاضره العقيم، وهنا يظهر عجزه في انسداد أفق المستقبل لديه " ولذلك فلا مجال إلى صنع التاريخ لأن التاريخ يفترض الإيمان بالمستقبل وقدرة الإنسان على صنعه " 97 وهنا ممكن الفرق بين الشرق الأسطوري والغرب الذي لا يؤمن إلا بالزمن التاريخي، متطلع دوما إلى تأملات، يراوده حلم تحقيقها في آجال مستقبلية محددة .

وفي نظرة مؤازرة، رأى الكاتب أن العيش عند الأوروبيين يعني التغيير باستمرار، بينما عند العرب يعني لهم التواجد والتحمل، وهذا ما عده أحد الأسباب الرئيسية التي تمنعهم من الاندماج.

وقد وصف الكاتب العرب بأنهم أناس لا عهد لهم بالموسيقى ولا يتذوقون أنغامها، وقد فسر « فوندال » ذلك بالطموح الذي يراود العرب المبني أساسا على التفاخر مما در عليهم بالقليل وأقدمهم الكثير من سبل الحياة، على خلاف الزنوج وميلهم إلى الحفلات والأهازيج .

كما حرص الكاتب أن يقدم للقارئ الأوروبي صورة عن العنف الذي نسبه إلى الجزائريين، وفي ارتكابهم الفعل العدواني ؛ وأن ما تقوم به فرنسا، هو مجرد رد فعل تال يراد منه إقامة النظام وتسيير شؤون العامة ودعوتهم إلى الانضباط، وأنه ليس هنالك أفعال سلبية فرنسية ؛ فيكفي الجزائري بوجود فرنسا أنه يعيش في أمن وأمان لم يعهدهما من ذي قبل ؛ " هنالك بعض السنوات أيضا، البليديون لا يخرجون دون امتلاك بندقية صيد معبأة على الكنف، ويعتقدون بحذر أن يكونوا في جماعة وكلها مسلحة . لأجل إتمام هذه النزعة الصغيرة على بعد كيلو مترين فما فوق من مدينتهم . اليوم بطبيعة الحال، كل واحد يذهب بمفرده إلى بناييع الوادي، مدخنا سيجارته معه الكثير من الأمان إلى الحديقة العامة من « السجاد الأخضر » والكثير أكثر استحيابا . " 98

وسعيا منه إلى ربط أحداث الماضي بالحاضر، قام الكاتب بتدوين ما من شأنه أن يغدو مرآة عاكسة للبيئة والإنسان الجزائري، مثنيا أهداف رحلاته الثلاث الاستكشافية إلى الجزائر مظهرا مدى تباين الظروف التي تكون أحيانا في خدمة الدولة الفرنسية، وأحيانا أخرى تكون ضد مصالحها ؛ ففي رأي الكاتب أنه في المجتمع الجزائري هنالك المؤتمن الخدم وهنالك من يجب الاحتراس منه ومقاومته بشتى الطرق " كان منتصف النهار، ... تحديدا في 15 مارس 1848 . غادرنا « الزمالة » ..؛ ولما كنا في الطريق وفي وسطها بالقرب من دوار القرية، مراسل عربي - الذي يبحث عنا منذ الصباح - أسرع نحونا في ركض (على ظهر حصان)، كان بحوزته تذكرة تخصنا والصحيفة الأولى من القائد العام ، قائلا لنا ذلك، هذه التذكرة والصحيفة التي تحمل في مقدمتها : « الجمهورية الفرنسية » جلبت لنا الجديد غير المتوقع والخطير جدا ... قرأت ثانية هذا وذلك وبناتيه بعد وجبة الغداء في الحديقة نفسها، في وسط دائرة من الناس أين لا أحد يتحدث لغتي . لكن جد مثير للريبة مثل العرب . أنت تعرف كيف أن الأخبار تذاغ في هذا البلد، إنها الريح التي تنقلها ... " 99 ؛ وهنا تأكيد أن جل الجزائريين مفسونون للأسرار بسبب تعصبهم وعدوانيتهم الجد مفرطة في نظر الكاتب .

واللافت للانتباه أنه وصف العرب بأنهم جيران متميزون، بإمكانهم الاندماج مع الفرنسيين، إلا أن ما يطلبون تحقيقه يعد ضربا من المستحيل في نظر الكاتب، كونهم " يتصرفون وفقا لأهوائهم، يفعلون كل ما قام به أبائهم، يتملكون الأرض دون عملية المسح التي تقوم بها إدارتنا الفرنسية، بينون دون مراعاة تخطيطنا لشوارعهم، يسافرون دون تفكير لتحركاتهم، ينشؤون دون تقييدهم في سجلات الميلاد، يكبرون دون خضوعهم للتعليم، ويفارقون الحياة ثم يقبرون دون اتخاذ الإجراءات المعمول بها عند الدفن تعويضا عما عدا متهم المدينة، يطالبون القانون أن يكون مكشوبا ؛ أن يعيشوا محتاجين، متسولين عند الأبواب، ينامون تحت النجوم الجميلة، يخلون الأسواق، ويتركون الحقول بورا، إنهم يحتفرون حتى التراب الذي انتزع منهم عنوة ويهربون من الأرض التي لم يصنوها، ما يمتلكونه يخفونه ويكنزونهم والدين لا شيء عندهم يخنبتون في بؤسهم وجميع الحقوق التي فقدوها . " 100 ليحكم عليهم بأنهم أناس أشقياء مبعدون يضررون الكراهية للغرب عامة وللفرنسيين خاصة، في عدلهم وديانتهم وتجارتهن وصناعاتهم وقوتهم وعبقريتهم ؛ مبيدا حنقه منهم لعدم تجاوبهم مع هذا الرقي لصغر عقولهم مثل أطفال، بما يفسره الكاتب بقوله : " القوة لا تعجبهم أبدا ... هذا الذي يكرهونه، إنه جيرتنا وهذا يعني أنفسنا، إنها مظاهرنا، عاداتنا، طبعنا، عبقريتنا، يخافون حتى منافعنا ليس بمقدورنا إبادتهم لقد خضعوا لنا . لا يمكننا الهروب، إنهم يجنبوننا مبادتهم، حكمهم منهجهم في السكون والاختفاء قدر الإمكان بنفس تصرف النسيان . " 101

والنتيجة المؤكدة التي توصل إليها فرومندان أن " بيت العربي هو سجن بقفل متين مغلق مثل صندوق قوي، رب البيت يخيل لديه المفتاح يعتمد على غفل كافة الأسرار ولا أحد يعرفها ولا أحد يستطيع أن يحصي ما لديه وكم يملك أو ما ثمن ذلك ... " 102 وهذا من داخل البيت أما في خارجه فهنالك عالم مخالف وحركة نشطة، فقد ظهر للكاتب صنف من رجال الصحراء بخلاف بني ميزاب الممتنين بالجزارة ؛ إنهم البسكرييون الذين يشتغلون بواسطة قطعان الحمير في نقل الرمال، مميزون بلباسهم حيث القلنسوة الصوفية والسترة الخفاقة ومنزر الجلد ...، وكذلك صراخهم الحاد على بهائمهم التي تعمل فوق طاقتها لحمل أكوام الرمل وفي رجوعها يمتطونها والأرجل متدللية معييا عنهم ذلك في استخفاف جزاء رفقهم بالحيوان " إنها تراتح الآن في سحر تحت قاماتهم " 103 .

وقد لاحظ الكاتب أن كثيرا من الناس يرتدون البسة مهملة، كوصفه لأحد العرب، قائلا : " كان عربيا من السهل، قصيرا قليلا وضخما قليلا، ملتح، جد مسمر مرتديا برئوسا، وعباءة، وتحت ملابسه مثل الفرسان من قميص وسترة واقية مطرزة من

96 . أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي . ج 6 . ص 482 . 483

97 . عبد الصمد زايد . مفهوم الزمن ودلالته . ص 14

98 . Une année dans le Sahel . P 193 .

99 . Ibid : P 213 . 214 .

100 . Ibid : P 24 . 25 .

101 . Ibid : P 25 .

102 . Ibid : P 35 .

103 . Ibid : P 47 .

الحرير، خيط رقيق من الحرير الرمادي من قلنسوة ذهبية مرفوقة حول رأسه « بشريط » من حبل وبر الجمل الأسود، سبحة معلقة إلى الرقبة وحرزتين أو ثلاثة حرور كانت مربوطة في تصفيفه شعره " 104.

وعن معلم الكتاب، لاحظ الكاتب أنه قد شاخ وانقطع عنه الأطفال كبار السن، بينما المتمدرسون فقد صفقوا في وضعيات مختلفة، منهم من يجلس أرضاً، ومنهم من يتكئ على الحائط، وآخرون يجلسون على مقاعد كرفوف " مستودع لأجل الضجيج والمرح من ساكنيه وكأنه قفص دواجن . المعلم دائماً في وسط القسم يدبر، يتقف، يحرس، يضع من ثلاث إلى خمس سنوات من التدريس وذلك بتعلم ثلاثة أشياء : القرآن، قليل من الكتابة ومن الآداب، العينين تتبع أي الكتاب، اليد موضوعة على عصا طويلة مرنة مثل السوط التي تمكنه دون مغادرة مكانه من المحافظة على النظام من الزوايا الأربع للقسم " 105

وفي الكتاب شاهد الكاتب جلوس الأولاد حول معلم القرآن يحفظون سور الكتاب ويتلقون بعض مبادئ الحساب وآداب المعاملة، وحين يكبرون ينصرفون إلى أمور الدنيا، ولعل ذلك نقله من انطباعات « شو » " إن حياة العرب البدوية وغير المستقرة والمظالم التي لا نهاية لها التي يرتكها الأتراك ضد الحضرة (السكان)، لن تسمح لآيهم بالتمتع بالحرية والهدوء والأمن التي أنجبت المعرفة في كل الأزمنة وشجعت عليها . " 106

والمعرفة تعمل على تنوير العقول، وتهذيب الطباع وبها يعرف الناس حقيقة أن الحرية أفضل من الحياة، ومن خلالها كيف تحفظ الحقوق والطرق المؤدية إليها، بما يبعث الضمائر إلى الثورة على الظلم وإزالته " لأن المعرفة تسمح دائماً بالمناورة لمن يملكها في مواجهة الآخرين . وسيد المعرفة سوف يصبح وحده باختصار هو السيد " 107

والغريب في الأمر أن معظم الملاحظين قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر لهم نفس الانطباعات على أن العربي لا عهد له بالمعرفة وليس له الوقت للدراسة والتفكير، وهذا ما صرح به « دولاكروا » خلال الستينيات من القرن الثامن عشر، سيراً على منهج « شو »، قائلاً : " إن شعب المغرب العربي جهّال وليس لهم ذوق في العلم أو الفن وهم بخلاء وغلظ ومزدرون وشكاكون وحقودون ... " 108

والظاهر أن التعليم في عهد الاحتلال ترتبت عليه نتائج وخيمة على سكان الجزائر، منها " انخفاض مستوى الدخل والمعيشة للغالبية العظمى من الجزائريين بحيث أن أعداداً ضخمة منهم حرمت من التمتع بالخدمات العامة كالصحة والتعليم والتي كانت تتوفر للوافدين المستوطنين " 109 ولعل فكرة إنشاء المدارس وتنقيف الجزائريين، غرض سياسي يراد منه التأثير على عقولهم وقلوبهم، لترسيخ فكرة التعايش مع المستعمرين، وتغليب اللغة الفرنسية لتحل محل اللغة العربية، " وهذا ما أعلنه « دوروفيكو »، قائلاً : إن المعجزة الحقيقية التي علينا أن نصنعها هي أن نحل اللغة الفرنسية شيئاً فشيئاً محل العربية، بحيث نتمكن من طريق هذا الإجراء من نشر لغتنا بين الأهالي، خاصة إذا أقبلت الأجيال الجديدة جماعات على التعلم في مدارسنا " 110 وهذا ما كل يرجوه فرومونتان في مناشدته حكومته الفرنسية في الإسراع بإقامة هذه المدارس وازدراثة الكتاب الذي يمثل لديه طريقة التعليم غير المنظم ؛ وهذا ما يقود إلى حقيقة مفادها " أن المدرسة القرآنية كانت لا تتمتع بأي دعم من السلطات الاستعمارية، وأنها كانت محاربة، ومضيقاً عليها من الأجهزة الإدارية والأمنية، في حين أن المدرسة الفرنسية كانت إحدى أسلحة الاستعمار، ووسيلته للتغلغل داخل أوساط الأهالي، ولذلك كانت تعطى لها كل المساعدة . " 111 غير أن الجزائري من وازعه الديني وخوفاً على أبنائه من الاندماج في الاستعمار، قاطع المدارس الفرنسية الحديثة التي رأت في امتناعه عن التعلم والتحضر، بقاءه على الجهل والانطواء، ما يجعله سهل الانقياد والاضمحلال من تلقاء نفسه .

ويلاحظ أن موضوع المرأة عند الكاتب قد أخذ حيزاً كبيراً من كتابه، حيث عبر عن انطباعات جليها خارجية، تجلت في جمال القد والعيون واللباس والحلي ؛ ممن أتيج لهن الخروج من البيت، كاليهوديات والزنجيات ؛ في حين أن النساء العربيات لا يخرجن إلا نادراً ومتحجبات وكأنهن محبوسات الحائك والبيت، ومثل هذا التفسير مرده إلى عدم فهمه بالتقاليد الاجتماعية والتعاليم الإسلامية، " والمرأة في نظرهم قدرية غارقة في الخرافات وهي ضحية التخلف والامية، وهي لعبة الرجل الذي كان يشترها بنقوده، كما يشترى البهائم والبضائع ... إنها آلة نسل وخدمة بيت وحاضنة أطفال وجالبة حطب وماء " 112 والكاتب لا يروقه النظر إلى المرأة المتحجبة، فهو يرى أن « الحائك » عامل تخلف لها، وعدم ارتدائه دليل تحضرها، مستمداً هذه الفكرة من بيئته لسيطرة المرأة في المجتمع الأوروبي دون مراعاة الوازع الأخلاقي ؛ كما استنكر نظرة الرجل العربي في احتقاره المرأة السافرة، وتبجيله للمتحجبة ؛ وقد تجلّى ذلك، في دفاعه عن المرأة التي يعرفها " ... لكن واحدة أظهرت خدودها (يقصد حوّة)، الأخريات بقين محجبات . واحدة تفتح إرادياً منزلها . الأخريات يغلقنها : هذه ليست نقطة في مسألة شعورية إنها مسألة من انضباط . كل الفرق يكمن في الستار (الحائك) : يخفض المرأة التي تكون نزيهة . ويرفع المرأة التي ليست كذلك .

ويؤكد الكاتب أن المقبرة عند العرب فضاء للتواعد والمتعة خاصة لدى النساء المتزوجات، واللواتي يجدن في زيارتها فرصة للخروج والالتقاء والتجمع في حلق قصد إظهار مفاتهن هروباً من صرامة البيوت المغلقة " من يدري ما يقلنّه من نميمة، من حكايات الحي، من ترثرة من أسرار منزلية ومغامرات غرامية من خدع صغيرة ؟ أكثر حرية هنا مما لهن في الحمام، إنه ليس لهن من كاتمين وشاهدين إلا أناس بالغي الحكم الذين هم ينامون تحت أرجلهم ... (والذين) لا يهدأ لهم بال إلا حينما ينزل عليهم الليل من جديد . " 113

104 . Ibid : P 165 .

105 . Ibid : P 53 .

106 . جون بابتست وولف . ساحل الشمال الإفريقي الجزائر تحت الأتراك . ص 155 .
107 . أحمد درويش . الاستشراق الفرنسي والأدب العربي . الهيئة المصرية للكتاب 1997 . ص 21
108 . جون بابتست وولف . ساحل الشمال الإفريقي الجزائر تحت الأتراك . ص 155 .
109 . إبراهيم مياسي . مقاربات في تاريخ الجزائر . ص 155 .
110 . أحمد منور . الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياها . ص 60 .
111 . المرجع نفسه : ص 234 .
112 . أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي . ج 6 . ص 337 .

113 . Une année dans le Sahel : P 87 . 88 .

وقد لاحظ فرومنتان تقوقع اليهود في تجمعات سكنية، تكثر بها المشاحنات الكلامية البذيئة مع صراخ الأطفال، وإبداء الحقد على الزائرين عليهم " مثلما اجتزت ألفناء لأجل مغادرة المنزل ؛ أحد الأطفال اليهود، الأصغر سنا، صدقَ (بِرَق) إلى جنب، مديرا رأسه ؛ هذا الذي أنت تعرفه، إنها علامة الإزدراء " 114

كما استعمل الكاتب على لسانه، عددا من الكلمات العربية الفصيحة والدارجة في العامية الجزائرية، تناولت بعضا من مظاهر الحياة اليومية للإنسان الجزائري، كقوله : السلام عليكم ، روح ديبالي ، شوف ، واش ، إن شاء الله ، ... وإذا كان هذا القاموس يعبر للكاتب عن الثقافة التي اكتسبها في رحلته ومدى معاشته وتغلغله في الوسط الجزائري، فإنه من جهة أخرى يعد مظهرا رومانسيا حرص الكُتّاب قبله إلى إبرازه في كتاباتهم، باعتبار الألفاظ التي يدخلها ضمن ما يسطره قلمه هي وسيلة أيضا لإبراز تقوقه وإبهار القارئ الفرنسي وإدخاله في جهة " L'exotisme " 115 .

ويرى فرومنتان أن اللغة العربية عسيرة الفهم والتواصل، تكاد تكون محصورة فقط عند العرب ؛ والظاهر لديه أن بعض المستوطنين يعرفون المستعملة منها، في حين أن باقي سكان مدينة الجزائر يستعملون خليطا لغويا يعرف بـ« سابير » وهو مزج من بعض اللغات الأوروبية كالإسبانية والبرتغالية والإيطالية والفرنسية عند التخاطب مع الأجناس الأخرى " هنا نحن نتكلم جميع لغات أوروبا. ثمة نحن لا نتكلم إلا لغة صعبة من المشرق . من حين لآخر وفيما يتعلق بمنتصف الطريق بين المدينتين، تدور لهجة دولية وبربرية معروفة باسم « سابير Sabir » الذي نفسه هو رمزي ويعني : « تفاهم / الفهم » سوف نفهم ؟ لن نتفاهم أبدا لا أعتقد ذلك . هنالك تجاذبات -من المستحيل- في الأخلاق مثلما هي في الكيمياء ... " 116

وهنا دلالة على انسياق الكاتب مع الاستعمار الذي يهدف إلى التأكيد في عدم وجود وحدة لغوية بين الجزائريين، وهذا ما يفضي إلى عدم تماسك المجتمع الجزائري وأنه خليط من الأجناس المقيمة والمنتقلة الذين لا عهد لهم بهذه الأرض المهجورة وبحق لمن يعمرها أن يمتلكها .

والحقيقة أنه " كان للجزائريين غداة الاحتلال لغة علم وثقافة واحدة مشتركة هي اللغة العربية، التي كانت منتشرة ومتغلغلة في أوساط السكان بدرجة كبيرة، شهد بها المحتلون أنفسهم وكتبها في تقارير رسمية ضباط عسكريون، وموظفون رسميون، وقد وجد بعضهم في نفسه من الشجاعة والموضوعية ما جعله يصرح : بأن القراءة والكتابة كانت عند دخول الفرنسيين أكثر انتشارا بين العرب (الجزائريين) منها بين الفرنسيين، لأنها لم تكن بالنسبة إليهم مجرد لغة تواصل، أو لغة علم فحسب، ولكنها كانت فوق ذلك لغة القرآن ... " 117

ولقد حرص فرومنتان على نقل الأمثال الشعبية المتداولة بين الناس وعدّها من ضروب الحكمة عند العرب فنالت بذلك إعجابهم وأسرع في تدوينها لأنها تمثل خلاصة تجربة في الحياة موافقة لمزاجهم العقلي " العرب عندهم كتاب الحكمة في عرفهم وجميع السياسة (البلاغة) الزوجية مضبوطة على هذه التعاليم، إذا فهو محكم متفق عليه ... " 118 .

ومن ضمن ما دوّنّه من الأمثال [الكلام من فضة والسكوت من ذهب] 119 ؛ [متى المرأة رأت الضيف، فهي لم تعد تريد زوجها] 120 ؛ [أتان في اليوم، امرأة في الليل] 121 ؛ [إذا كان كل الذي نطلبه نحصل عليه، الشحاذ يصبح بايا] 122 ؛ [رأس دون حيلة يقطينة أفضل منه] 123 ؛ [رجل ذو لسان عذب بإمكانه رضع اللبوة] 124 ...

ولم يوّت فرومنتان لحظة الاستمتاع وهو يسرد صغائر الأمور مؤكدا على تسجيله من هذه البيئة كل ما من شأنه الإيحاء بالتخلف الصارخ والمشاهد النادرة " من خلال شجرة تين فسيحة دون أوراق لكنها .. كثيرة الأغصان . جذع الشجرة نفع في بركة ماء أسنة، حيث استثار البط والدجاج مرتبط متني متني من خلال الوصلة، مثل السجناء ضمن من يتحدى، تتجول حول رماذ جرد مرتبكة من عقالها، كل واحدة تجذب الخيط إلى نفسها دون التمكن من المشي في انسجام . إنا لا أولف قط الصورة هكذا ؛ لكنني أأأقل لك بالضبط ما رأيناه . " 125

وهنا يُلاحظ أن الكاتب تعمّد رصد هذا المشهد البدائي، مبينا الأوضاع المتردية والحياة القديمة في هذه الناحية الأتلة للزوال بسبب التوسع الاستعماري في المدينة، وفرض سياسة التهميش والإقصاء على سكانها ليعشوا في فقر مدقع وجهل حالك تحت أسر الاستبداد .

كما لفت انتباه قرائه إلى أنواع الطيور النادرة كالحبارى والتي لا توجد إلا في هذه البيئة التي ضمت صنوفا متنوعة من الطير والحيوان مبديا امتعاضه من طريقة العرب في صيد الطرائد وتقفي آثارها وقصصها دون هوادة في صورة همجية تفاضلية في إحرار الكم لا الكيف ؛ في حين أن الصيد هواية و متعة محببة للقادرين عليها تمّ عن مقدار تحضر أصحابها .

وعن طائر اللقلق والذي غالبًا ما يبني عشه في السطوح والمداخن في مدن شمال إفريقيا، ويهال بقدمه الناس كعلامة بانقضاء فصل الشتاء وحلول الربيع مما سار في عرفهم أنه فال خير عليهم، يقول : " رأيت اللقلق متبوعًا من رفقته، ينزل من الجبل ويتوجه نحو « باب السبت » ، ... واحد من العرب الذي رآه، مدّ ذراعه وقال واقفا نحوه مباشرة : « شوف البرارج » _ انظر ها هو اللقلق _ . إنهم شاهدوه جميعا على الفور، وكأنه مسافر أقبل عليهم " 126 .

114 . Ibid : P 181 .

115 . عيسى عطاشي صورة الجزائر في أدب الرحلات الفرنسي "صيف في الصحراء" لفرومنتان نموذجا. ص 111

116 . Une année dans le Sahel : P 23 .

117 . د. أحمد منور . الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياها . ص 23 .

118 . Une année dans le Sahel : P 35 .

119 . Ibid : P : 29 .

120 . Ibid : P 35 .

121 . Ibid : P 37 .

122 . Ibid : P 163 .

123 . Ibid : P 65 .

124 . Ibid : P 173 .

125 . Ibid : P 158 . 159 .

126 . Ibid . P 190 . 191 .

وفي هذا الصدد تتحدث الباحثة أن ماري كرستين : " أن الإنسان الجزائري كائن خرافي يخضع في حياته لأوهام، ويرتبط بعالم أسطوري متخالف لا يمكنه التغلب على الفرنسي الذي يتقدم عليه كبديل حضاري يتصف بالقوة والعبقرية ويخضع حياته للعقل والعلم والتجربة " 127

ويواصل الكاتب وصفه للإيل، بقوله: بغض الجمال التائهة بعيدة عن « الدوار » تقترب بدل الفرار منا ... مستقيمة واقفة معظومة مع ذراها المويرة، ... ورؤوسها الغريبة، من شفه محرقة إلى العين الوديعه، هذه الحيوانات كبيرة البنية وضعت بين الأراضي الشاحبة والسماء ذات الزرقة الناعمة . وضاعفت النسب والأحجام وأخذت مثل « فيل » شوهد عن قرب ... الاعتدال من هذه الحيوانات تأخذ فوق العادة مواصفات لنوعية أخلاقية لا نراها جياعاً إننا نعتقد أنها مفكرة (متاملة) " 128

وقيل ظهور الجمل كان الحصان هو الحيوان المستعمل للركوب ونقل الأثقال، إلا أنه أمام الصحراء يبدو حيواناً ضعيفاً على تحمل قسوة طبيعتها وحاجته إلى العلف باستمرار، لذا لم تتوان السلطة الاستعمارية في استخدام حيوان الجمل ضمن قوتها لاكتساح الصحراء " والجمل يستعمل لنقل الأمتعة الثقيلة ومختلف أنواع البضائع، ولكنه يستعمل أيضاً بسرج أو راحلة للركوب . وهذا النوع هو الذي يسمى « المهري » والذي استخدمه الفرنسيون بكفاءة لإخضاع الصحراء ولسلب الرجل الصحراوي حريته التي تحمل المشاق وناضل من أجلها فروناً طويلة . " 129

وقد خصص فرومندان جزءاً من كتابه في وصف الخيل وطقمها ؛ مبيناً فن ركوب الخيل وألعاب الفروسية عند العرب، " الرجال كانوا في ... أثواب الحرب : سروال الخفاف، الحايك (العباءة) المستديرة والمزخرفة، الأحزمة المجهزة من الخراطيش ... ذهبوا معاً وصلوا إلى الأقصى . شيء كفاية نادر للعرب ... الركاب بجانب الركاب...، الأذرع ممتدة الزمام للريح ... يناورون سواء بالبنادق سواء بالسيوف ...ومن خلال الحركة التي لا يمكن وصفها، كل البنادق طائرة فوق الرؤوس،... تقريباً عاماً الذي نحن نغطيها من البارود ويحجبنا بالبخاخ الأبيض، النساء يصفقن ... في حدث مثل الحرب، المشاهد باهر الذي يسمى فنطازيا عربية هذا المشهد ينتظر رسامه ... " 130

ومما يذكر أن الجنرال « أوجين دوما * Eugène Dumas » ألف كتاباً عن الحصان العربي سماه : « خيول الصحراء الكبرى مع تعليقات للأمير عبد القادر » نُشر وأعيد طبعه ثانية عام 1853، لما لقيه من استحسان ونجاح وتجابوب مع القارئ الأوروبي المتطلع إلى أخبار الشرق ؛ وكان من بين من استفاد منه الكاتب فرومندان، الذي فتح المجال أمامه للتعبير عن ألعاب « الفنتازيا » أو « ألعاب الفروسية العربية » بعد أن تشبع فكره بأقوال المتمرسين في هذا الميدان، يقول : " الجنرال ب. ديكاريري B. De Carriere ((إن للعرب في تربية الخيل وترويضها أفكاراً ذات صحة لا يمكن إنكارها لأنها ثمرة خبرة تقليدية ... وحصانهم هو الجدير بالمعارك ... إنها خدمة إضافية لجيشنا في إفريقيا (...)) " 131

كما حرص الكاتب أن يقدم الفرنسي في صورة كاملة مثالية تؤهله لأن يبرز كإنسان متشعب بالمسؤولية خبير بحياة الأهالي يدير شؤونهم بحزم وصرامة دون أن يجرد ذلك من مشاعره وعواطفه الخيرة ؛ يعرف تاريخهم وسوابقهم وشؤونهم الداخلية وقرابنتهم، وقد مثل ذلك عن طريق شخصه وشخصية صاحبه لويس فوندال « بوجعية » ومن خلال عظمة شعبه التي يستحضرها من حين لآخر، للاستشهاد بها في موضوعات كتابه ؛ وبالمقابل لا يروقه تصرفات بعض المستوطنين*، الذين يتصرفون على شاكلة العرب والذين يتخبطون في عالم خرافي وتقاليد بالية مما يدل على تخلف فكرهم وبدائية سلوكهم .

وهنا يتضح من العرض السابق، أن فرومندان زار الجزائر، التي دفعته إلى معايشة الحالة الروحية للشرق وتسجيل كل مظاهر السلوك والعادات والتقاليد ؛ مؤكداً في كتاباته إلى قرأه ما استنبطه من أحكام كثيرة عن هذه البيئة التي عبر عنها بشجاعته الأدبية وموهبته الفنية في الرسم وعناء الالتزام بالموضوعية في نقل الواقع؛ إلا أن ذلك كان يمثل ملاحظات عامة أقرب إلى الانطباعات الشخصية التي قد يتفق معها سائحون آخرون، كما أنها أحكام خاصة تمّ تعميمها على الكل، بالإضافة إلى أنها انطباعات رجل وقع تحت تأثير مشاعر الإحباط التي انتابته بسبب تجربته العاطفية في طفولته ؛ ولملء خوائمه الروحي المؤلم، ازداد نهمه في السعي إلى التآلق في فن الكتابة من خلال موضوع الجزائر، رجاء التغلب على أزماته النفسية والبحث عن التوازن والصفاء لشخصيته بين الجميل والغريب من هذه البيئة الشرقية .

وعلى الجملة فإن الصورة التي أنجزها فرومندان عن الجزائر وشعبها اتسمت بمظهرين واضحين من خلال القراءة الأولى لكتابه المدروس، يتجلي المظهر الأول في صورة الواقع التبعث الذي عاشه الشعب الجزائري تحت نير الاستعمار وخبث خطته في استحواده على أرض الجزائر وإعمارها باسم : « إفريقيا الفرنسية » ؛ وتنخللها صورة انبهار بجمال البيئة التي طالما حلم بمنزلها الغرب في امتلاكها، فكتاب الصحراء مثل الصيف الإفريقي بعينه وكتاب السهل مثل الجزائر المخضرة الضاحكة وأصواتها الفاتنة وتضاريسها المختلفة وأفاقها اللامتناهية وهي صورة المشرق وكأنها آيات من الكتاب المقدس .

أما المظهر الثاني فقد تمثل في صورة تعبير عن نظرة ذاتية لواقع وهميّ تُوّطره روح الاستعلاء والتعصب غير مبرأ من سياسة التمييز التي ينتهجها الغرب اتجاه العرب وغيرهم من الشعوب المبنية أساساً على النفعية المادية .

127 . Un été dans le Sahara . P 17. 18 .

128 . Ibid : P 289 .

129 . إسماعيل العربي . الصحراء الكبرى وشواطئها . المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ؛ 1983 ص 45 .

130 . Une année dans le Sahel . 327 .

* للجنرال أوجين دوما أربعة مؤلفات :

- « الصحراء الجزائرية 1845 Le Sahara Algrien »

- « الصحراء الكبرى 1848 Le Grand Désert »

- « آداب وعادات الجزائر 1853 Mœurs et Coutumes de L'Algérie »

- « الحياة العربية والمجتمع الإسلامي La vie et La Société Musulmane »

131 . أوجين دوما . خيول الصحراء الكبرى مع تعليقات للأمير عبد القادر . عرض وتحليل : سلميان قطاية . مجلة عالم الفكر المجلد التاسع عشر (19) العدد الرابع (04) . الكويت (أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر 1988م) ؛ ص 271 .

* مثل جار الكاتب البولوني « آدم » غريب الأطوار، الذي يملك حظيرة دواجن، كثير التأملات، والسهر مع الغرباء في ظلام الليل الدامس، لم يشعل لهم نار موقده يوماً، ويتصرف - في نظر الكاتب - كعربي يميت ساعات حياته ليستتر تحت التراب .

01. Eugène Fromentin . Une année dans le Sahel . Michel Lévy Frères, Libraires - Editeurs . Paris 1859 .

02. Eugène Fromentin . Un été dans le Sahara . Présentation et Notes par Anne Marie Christine . Editions Le Sycomore . Paris . 1981 .

ثانياً : المراجع العربية :

03. أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954 . ج 6 . ج 8 . ج 10 . دار البصائر الجزائر .
04. إبراهيم مياسي . مقاربات في تاريخ الجزائر 1830 - 1962 . دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر 2007 .
05. أحمد درويش . الاستشراق الفرنسي والأدب العربي . الهيئة المصرية للكتاب 1997 .
06. أحمد منور . الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياها . ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 2007 .
07. إسماعيل العربي . الصحراء الكبرى وشواطئها . المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1983 .
08. جون بابتست وولف . ساحل الشمال الإفريقي الجزائر تحت الأتراك . ترجمة أبي القاسم سعد الله تحت عنوان : الجزائر وأوروبا 1500 - 1830 . المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1986 .
09. عبد الصمد زايد . مفهوم الزمن ودلالته في الرواية العربية المعاصرة، الدار العربية للكتاب، تونس - ليبيا 1988 .
10. عبد المجيد حنون . صورة الفرنسي في الرواية المغربية . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر ؛ 1986
11. غاستون باشلار . جماليات المكان ؛ ترجمة : غالب هلسا . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2 . 1984 .
12. منى أحمد أبو زيد، الفكر الديني عند زكي نجيب محمود . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع . ط1 . بيروت، لبنان
- ثالثاً : المراجع الفرنسية :

13. Delacroix E. Voyage au Maroc 1832 . Paris 1930 .

14. Eugène Fromentin . Les Lettre de jeunesse . Paris . 1909 .

15. Roger Le Tournau " Les villes Musulmanes de L'Afrique du nord " Ma Maison des livres . Alger 1957 .

رابعاً : الرسائل الجامعية :

16. عيسى عطاشي صورة الجزائر في أدب الرحلات الفرنسي "صيف في الصحراء" لفرمنتان نموذجاً. مشروع لنيل شهادة ماجستير 2005 .

خامساً : الدوريات باللغة العربية :

17. مجلة عالم الفكر . الكويت ؛ 1988 .